

الطرق الصوفية والحضور العثماني في الجزائر

الباحثة: أمينة بوشاقور علي عمر

مخبر الفلسفة وتاريخها - جامعة وهران 2

إشراف الأستاذ الدكتور: راجح لوئيسي، جامعة وهران 1

Abstract:

This In the Middle Ages, politics was very attached to religion in both, Christian and Islamic worlds. In spite of the methods, references and circumstances, Similar to the Roman Church in Europe, the religious authority in the Maghreb during the rule of the Berber Muslim dynasties, were very influenced by the Muslim Brotherhoods (Sufi Orders,).

This paper is a short study focusing on an epistle written by one of the most powerful mystical personality; Ahmed bin Yusuf al-Milliani to the Sultan al-Watasi Muhammad ibn Muhammad al-Sheikh al-Wattasi, who is known as the Portuguese, who ruled between the years 911 AH-931H / 1505 AD-1524 AD. Ahmed bin Yusuf al-Milliani in this latter, He strongly defends the position of his followers after the accusation of the sultan them of heresy. He also warns the sultan of the anger and the rebellion of the followers. The Epistle reflects the authority of the Sufi orders and the power of the scholars that practice mystical methods in the 16th century and in all the time in Islamic world. It was the deal of the alliance between religion and politics as a condition of stabilisation of the societies.

Keywords: Muslim Brotherhoods, Sufi Orders, religion, politics, Ahmed bin Yusuf al-Milliani, Muhammad al-Sheikh al-Wattasi, ottoman Algeria, Maghrb.

بدأت الأوضاع السياسية منذ نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، تأخذ منحى آخر بفعل ظروف وأحداث مست مجتمع المغرب الأوسط خاصة والعالم الإسلامي عامة. كانت هذه الأحداث سببا في اتخاذ أحمد بن يوسف الملياني لمواقف سياسية انعكست بالدرجة الأولى على مجتمعه في جميع المجالات. يمكن إبراز هذه الأحداث على مستويين: داخلي وخارجي، حيث أن المغرب الأوسط بحكم موقعه الاستراتيجي- جغرافيا وسياسيا واقتصاديا- أصبح مسرحا للحروب والصراعات الداخلية.

كان كل من الحفصيين والمرينيين يتدخلون في الشؤون السياسية للدولة الزيانية، والتي كانت تحكم معظم المغرب الأوسط، الذي كان محل الأطماع الخارجية خاصة الإسبان والبرتغاليين والذين بدورهم حاولوا السيطرة على موانئه البحرية. فلم يكن بمقدور سكان المغرب الأوسط وحدهم مواجهة والتصدي أمام كل هذه الأطماع والتوسعات.

أدى سقوط غرناطة آخر إمارة إسلامية بالأندلس، وطرد المسلمين منها سنة 1492م إلى انقلاب في موازين القوى الدولية الذي ترك أثره الواضح على السياسة والاقتصاد في المغرب الأوسط، الذي تميز في هذه المرحلة التاريخية بالضعف والتراجع. نظرا لأسباب أهمها: النهضة الأوروبية التي كانت في عمقها نهضة علمية وإصلاحية. (غلاب، 2005: 334) وكذا الحروب الصليبية، والرغبة المسيحية في الانتقام، وهدف أوروبا في الاستغلال الاقتصادي بالسيطرة على المواني والطرق التجارية الداخلية، خاصة تجارة الذهب.

إن مجريات هذه الأحداث قد بدأت تظهر جليا في الدور الأخير من الحكم الزياني، الذي بدأ يشهد الضعف والانحلال. فبدأت الهجمات الأوروبية وفي مقدمتها هجمات البرتغاليون على الجهة الغربية من المدن الساحلية للمغرب الأوسط، بداية من وهران والمرسى الكبير سنة 1501م. كانت هذه الأحداث أثناء حكم الأمير الزياني محمد الثابتي، (حاجيات، 1989: 455) الذي احتلت إسبانيا في عهده المرسى الكبير (سنة 1505م). أما في عهد الأمير محمد الخامس بن محمد الثابتي استفحل الخطر الأجنبي، فاحتل الإسبان كل من وهران (سنة 1509م)، وبجاية وعنابة (سنة 1510م)، وتكرس الاحتلال بتفاوض الأمير الزياني مع الإسبان ومصالحتهم على أن يكون واليا لملك إسبانيا. (جغلول، 1988: 88) بسيطرة الإسبان على السواحل الجزائرية بدأ تطبيق العملية الانتقامية الصليبية. فأصدر البابا بمقتضى ذلك قرار الإعلان عن حرب صليبية ضد الدويلات المغاربية سنة 1518م. (الجيلاني، 1994، 2: 202)

يمكن القول مما سبق، أن المجال السياسي قد كان في القرون الوسطى مجالا دينيا بالنسبة للعالمين الإسلامي والأوروبي. حيث أن أوروبا في هذه الأثناء قد خضعت في ممارسة السياسة للمجال السياسي ذاته الذي كان يحكم ممارسة السياسة في المغرب الإسلامي. رغم الاختلاف الشكلي بين التنظيم الصوفي الإسلامي والتنظيم الكنسي، إلا أن السلطة فيهما تتركز في يد شخص يتميز عن غيره بالقدسية أو التفويض الإلهي. وفي هذا السياق يمكن فهم رسالة أحمد بن يوسف الملياني إلى السلطان الوطاسي محمد بن محمد الشيخ الوطاسي الملقب بالبرتغالي الذي حكم بين سنوات 911هـ-931هـ/1505م-1524م، دفاعا عن أتباعه، بعد أن وصفت طريقته بالبدعة والخروج عن السنة، فقال: "المولى جلّ جلاله مدني بمدده، ووصفني بأوصافه، أنا هو وهو أنا. يا أمير المؤمنين لا تقهر الفقراء، حتى يعمل لك العلماء برنصا من الثلج ويلبسوه لك في الصمائم، ومن الماء عمامة ويشدونها شدا مائلا، ومن الريح قنديلا ويعملون فيه فتايلا." (الصباغ، 2000: 220) وقد اعتقد الحاج الصادق خطأ أن الرسالة موجهة إلى السلطان عبد الله الغالب (المتوفى سنة 1554م)، رغم أن الملياني كان قد توفي قبل عهده، معتمدا في ذلك على نص

الرسالة الذي أورده الورثياني في الرحلة وحاول تفسيرها تفسيرا رمزيا. (الصادق، 1964: 101) كما تبين مناسبة ورود النص في الرحلة سلطة الملياني وآله من بعده في العهد العثماني، حيث أنه قد ذكر رسالته إلى سلطان فاس بعد ذكره أن رحله إلى الحج كانت تحت إمرة نجل أحمد بن يوسف الملياني أحمد بن الطيب. (الورثياني، 1974: 107-109)

كما تبين هذه الرسالة إلى أي مدى كانت الطريقة الراشدية منغمسة في السياسة، ليس داخل موطن بني راشد والمغرب الأوسط الزياني والجزائر العثمانية فحسب، بل كذلك بمغرب الوطاسيين الذين كانوا على عدااء مع قوة الأتراك المهيمنة بالمنطقة، وعلى حذر من كل القوى التي لها علاقة بهم أو متحالفة معهم. وبما أن الطريقة الراشدية قد اشتهرت بعلاقتها بالأتراك، فقد جعل الوطاسيون ثم السعديون من فرعها بالمغرب الأقصى أول الأعداء.

إن نصيحة الشيخ أحمد بن يوسف في رسالته للسلطان بعدم " قهر الفقراء " إشارة إلى الخنة التي تعرض لها أتباع الطريقة الراشدية بالمغرب الأقصى، والتي شارك فيها فقهاء ومتصوفة من خلال تبديعهم وتكفيرهم لشيخ الطريقة الراشدية وأتباعه. ومما زاد من شراسة الحملة التي أطلقها الوطاسيون والسعديون على الطريقة الراشدية وفروعها، سرعة انتشارها بمناطق نفوذهم، في الربع الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، أي في حياة مؤسسها من جهة، ومن جهة أخرى حضورها المركزي في ردود الأفعال التي طبعت الحياة السياسية والثقافية لمغرب الوطاسيين والسعديين.

يستر في القرون الوسطى دوما السجل السياسي في هذا المجال وراء السجل الديني. السلطان المريني يرمي شيخ الطريقة الراشدية وأتباعه بالبدعة والمروق من السنة، لتحالفه مع الأتراك خصوم الدولة المرينية. والشيخ يُعلمه بولايته وتأييد العلماء له، ويحذره نفسه وقهر مريديه وأتباعه، وإلا صار هباء وسرابا.

في ظل هذا المناخ السياسي المتصف بالحرب والغزو المتبادل بين ضفتي البحر المتوسط كانت سفن الأخوة بربروس وخير الدين تجوب البحر المتوسط، وتُغير على السفن المسيحية باسم المسلمين كرد فعل على قرصنة المسيحيين، (غلاب، 2005: 336) والتي تمكنت في بداية الأمر من الاستيلاء على السفن الإيطالية والفرنسية والانجليزية وأسر كل من فيها فتحوّل انتصارات الأخوة بربروس من القرصنة إلى الدفاع على الموانئ المهددة بالاحتلال، فأصبح هدفهم الأساسي الجهاد ضد المسيحية (وولف، 2009: 28) وهو ما أدى إلى إعاقة الهجمات الأوروبية على طول سواحل المغرب العربي.

وبدأت أيضا مطاعم عروج وخير الدين تتسع من الحماية والجهاد إلى تكوين ولاية خاصة في تونس والجزائر، وبمحاولات متكررة للسيطرة على القلاع والموانئ في الجزائر تقلب السكان وزعماء القبائل بين الإخلاص للإسبانيين بهم من عروج وقواته وبين الإخلاص لـ عروج والاستنجاد به ضد الإسبانيين (غلاب، 2005: 338) وهو الموقف الواضح والمعروف الذي اتخذته الملياني وأتباعه. خلف محمد الخامس بن محمد الثابتي أخوه أبي حمو الثالث ولم يكن المغرب الأوسط في عهده بأحسن حال مما كان عليه في عهد أخيه، وظل ملتزما بنفس سياسة سابقه وهي مسألة الأسبان، وهذه السياسة المتبعة من

طرف الحكام الزيانيين كانت سببا في استياء أهل تلمسان الذين ثاروا عليه مستنجدين بـ عروج وفي المقابل استنجد أبو حمّو بالأسبان وانتهى ذلك بمقتل عروج سنة 1518م. (الجيلالي، 1994، 2: 223) وظل النفوذ الزياني يتقلص حيث قدم خير الدين أخو عروج بجيش عثماني فاستولى على الشرق الجزائري (المدني، 192) وبعد وفاة أبو حمّو الثالث سنة 1528م خلفه أخوه أبي محمد عبد الله بن محمد الثابتي وزاد الوضع تفاقما بين الأتراك والإسبان حول الاستيلاء على الجزائر وانتهى النصر لصالح الأتراك فاضطر السلطان الزياني وبطلب من أهله إلى إجراء اتفاق سرّي بينه وبين خير الدين، وكانت الظروف السياسية ملائمة له حيث انشغل عنه الإسبان إلى أن توفي سنة 1540م (حاجيات، 1989: 457).

الطرق الصوفية والمجال السياسي

يتعلق هذا الجانب بدراسة امتدادات الفكر الصوفي والطرق الصوفية بالمغرب الأوسط في القرن الخامس عشر الميلادي. ومجمل الكتابات والتأليف الصوفية التي انتشرت في القرون التالية، ولاسيما بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وذلك لطبيعة الظروف التي سادت في ذلك الوقت والتي أثرت في المسارات الروحية التي عرفها التصوف بالمغرب الأوسط. حيث تجمع العديد من الدراسات التي تناولها هذا الجانب أن القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي مثل بداية انحطاط المستوى النظري والمعرفي للفكر الصوفي، (سعد الله، 473) ولسقوط غرناطة 899هـ/1492م علاقة مباشرة بهذا الانحطاط.

عان الحكم الزياني منذ قيامه من ضغوطات سياسية، والتي كان سببها الرئيسي التوسعات الشرقية (الحفصيين) والغربية (المرينيين). إضافة إلى الصراعات الداخلية بين السلالات الحاكمة، وعدم استقرار الحدود السياسية. ورغم هذا الوضع فإن هذا القرن (16م) اعتبر من "أوفر إيتاج الجزائر الثقافي"، ومن أخصب عهودها. ولعل من أبرز المؤشرات الدالة على ذلك هو غزارة التأليف والعناية بالعلم والعلماء من طرف السلطة الزيانية. سواء في حالة القوة أو الضعف فالأحداث السياسية واضطرابها لم تكن عائقا أمام الحركة الثقافية آنذاك، بل على العكس تماما كانت عامل تحفيز، وقد تزامن هذا مع وجود أهم علماء ومتصوفة العصر الذين يعود لهم الفضل في الحفاظ على الإرث الثقافي.

من غير الممكن أن تتجاوز الدراسات التاريخية المختصة في تاريخ المغرب الكبير أثر الشيخ محمد بن سليمان الجزولي (المتوفى سنة 870هـ/1466م)، والطريقة الجزولية في تاريخ التصوف الطريقي عامة والشاذلي خاصة. لقد كانت الجزولية على المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية المرحلة التمهيدية لما سمي بعصر التصوف. العصر الذي أصبح فيه للصوفية حضورا في جميع مجالات الحياة الثقافية والتربوية والاجتماعية والسياسية.

لقد زاد الجزولي من تعميق البعد الشعبي في الطريقة الشاذلية من خلال لحظتين تاريخيتين: تتعلق الأولى باحتلال البرتغاليون لمدينة سبتة في الشمال المغربي سنة 1415م، وتحلي السلطة المرينية عن مقاومتهم لانشغالها بالصراعات الداخلية في هرم السلطة، والتي انتهت بانتقال الملك فعليا للحجاب

الوطاسيين سنة 1429م. مما أدى إلى تولي الجزولية لحركة الجهاد التي حققت انتصارات على الغزاة بتحالفها مع الحكام الجدد السبب الذي عزز من سلطتها الاجتماعية والسياسية والتي بدورها لعبت دورا حاسما في قيام الدولة السعدية.

إذا كان الاتجاه الجزولي قد دفع بالتصوف الطريقي الشاذلي نحو البعد السياسي الشعبي، فإن الاتجاه الزروقي قد عمق من البعد العالم في المنحى الإصلاحي للشاذلية. وبصيغة أخرى فإن ما قام به محمد بن سليمان الجزولي في الاتجاه بالتصوف نحو الأرض هو ذاته المجهود الذي قام به أحمد زروق في الاتجاه به نحو السماء.

إن المغرب الكبير عامة والأوسط خاصة قد دخل عصر التصوف في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة السادس عشر والسابع عشر الميلاديين بركيزتين إحداهما تدفع نحو الفروع (الجزولية) والأخرى نحو الأصول (الزروقية).

من بين العلماء والصوفية الأعلام الذين قادوا الطريقة الشاذلية خاصة والتصوف الطريقي عامة نحو الإصلاح، القائم على المعرفة وعلوم الشريعة الشيخ أحمد زروق (846هـ-899هـ)، وشعاره في ذلك القول المنسوب إلى الإمام مالك "من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق." (زروق، 13) فقد تخرج عنه العديد من الصوفية حين تصدر للتدريس بجاية، أشهرهم أبو الحسن البكري وطاهر بن زيان القسنطيني، وأحمد بن يوسف الملياني الذي يعتبر من أهم تلامذته الذين حافظوا على النهج الشاذلي الزروقي.

لقد كان الشيخ أحمد زروق في هذه الأثناء يؤسس وعيا نقديا يهدف أساسا إلى الإصلاح، فاعتبر في نظر الصوفية "محتسب العلماء والأولياء". (الكحلاوي، 2009: 258) ولم يسبق أن وصف أحد من العلماء أو الصوفية في تاريخ الإسلام بهذه الصفة. ولأن الحسبة في الإسلام "يقصد بها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقع الغش والتدليس في الدين (نجي، 1997: 79). فإن الشيخ أحمد زروق قد استحق هذه الصفة لأنه عبر عن منعطف متميز في تاريخ التصوف الطريقي من جهتين:

الأولى: أنه وجد في مرحلة تاريخية عرفت "بعصر التصوف"، لتكاثر عدد الزوايا والمريدون والأتباع دون الاهتمام بتعاليم الشريعة. (عيسى، 2005: 408)

الثانية: أدرك أحمد زروق المنحى الذي قد يأخذه أتباع الطرق الصوفية في زمانه، فعمل على إصلاح الفكر الصوفي بوضع أسسه على الشريعة. (الكحلاوي، 2009: 258) وقد لخص هذه التجربة في كتاب: قواعد التصوف الذي يعتبر أفضل مؤلفاته الصوفية التي "تدور على الاجتهاد والتجديد، وقدم في ثناياه حولا لمشاكل عصرهن الذي افترق أهله بين فقهاء وفقرائه، وطمع فيه القائم على الرئاسة الروحية في الرئاسة الدنيوية، وانعدم طففيه المتوجه بصدق إلى الله." (نجي، 1997: 84)

إذا أردنا وصف المغرب الكبير والأوسط قبيل وأثناء عصر التصوف من النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية يمكن القول: بعد ما كانت الدول تقوم على العصبية، أصبحت تحمل "على أكثاف مشايخ الزوايا والطوائف. ونزل الابريريون بسواحلهم واستولوا على ثغوره... واستقر الأتراك بالمغرب

الأوسط... وتكاثرت الزوايا به حتى كاد عددها يفوق عدد المساجد، وانتشر الأولياء وأهل الصلاح من الملامتية وأرباب الأحوال والجذب، وانفتح الباب على مصراعيه للمستورين على النسبة وأهل الدعوى، فاصطلح على تسمية العصر بعصر التصوف." (نجي، 1997: 117)

كان من أبرز متصوفة المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي الذين أثروا بشكل كبير في ميدان الزهد والتصوف ودعوا إلى الإصلاح والجهاد في نفس الوقت عبد الرحمن الثعالبي من خلال ثلاثة وسائل أساسية وهي: التدريس، والتأليف، والزواية (سعد الله، 92) وأيضا أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي الذي دعا بدوره إلى الاهتمام بالصوفية المعاصرين لزمانه فاستجاب الصباغ لأستاذه وكان من السابقين لذلك حيث اخذ يجمع الروايات التي كانت تتحدث عن الملياني.

أحمد بن يوسف الملياني بين التأيد والمعارضة

اتخذ شيخ الراشدية أحمد بن يوسف الملياني مواقف سياسية مختلفة تتماشى والظروف الداخلية والخارجية القائمة آنذاك. ظروف مست المغرب الأوسط، والتي بمقتضاها لم يستطع الملوك الزيانيين التصدي لها والقضاء عليها بصفة نهائية. فكانت مواقف الملياني تدور بين التأيد والمعارضة، وتزامن ذلك مع الهجمة الأوربية السياسية والعسكرية التي رافقتها هجمة تجارية دينية مسيحية على كل دول المغرب الإسلامي. فأصبحت المراكز الحكومية الثلاث (الحفصية، والمرينية، الزيانية) عاجزة على المواجهة، يضاف إلى هذا التبعية المالية التي جعلت دول المغرب يقومون بدور الوكلاء. (جغلول، 1988: 88)

وبناء على هذا الإطار الذي سبق التفصيل فيه، والذي ارتكز عليه الملياني في اتخاذ هذه المواقف، فإن هناك جانب آخر لا يمكن إغفاله والمتمثل في ما أصبحت تمثله الولاية كمرجعية رمزية لعمليات التوظيف الديني والسياسي في إطار البحث عن المشروعية، ويتضح جليا من خلال سيرة أحمد بن يوسف التاريخية.

وبهذا الصدد لا بد من إبراز بعض الدلالات التي يتضمنها مصطلح "الولاية"، والتي تجلت في شخصية أحمد بن يوسف الملياني الكاريزماتية، الذي أصبح نموذجا من نماذج التاريخ الثقافي والاجتماعي والسياسي للمغرب الأوسط.

فالولاية أو الوالي قد حمل في طياته معاني متعددة، جعلت من المصطلح رمز ذو بعد سياسي واجتماعي عبر التاريخ، كما انه انطوى على ثلاث معان أساسية:

- المعنى الأول: يأخذ المضمون الديني الأخلاقي، (الكحلاوي، 2009: 247) حيث أن موضوعه الأساسي وتكوينه ينبع من القرآن ويرجع إليه. (العدلوني، 205) من هنا فإنه يبرز مكانة الوالي وقوته الرمزية على البشر، وهو ما يمكن استخلاصه من خلال الآيات القرآنية التي ورد فيها كل من اللفظين: "ولي" و"ولاية"

لقوله تعالى: {وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير} (البقرة، 107).

{هناك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا} (الكهف، 44).

في مجمل معنى: الناصر المدبر والمتصرف، (شودكفيتش، 2004: 38) كما يدخل أيضا ضمن هذا المعنى: القريب والصديق، (شودكفيتش، 2004: 36) طبقا لقوله تعالى: {إن وليي الله الذي أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين} (الأعراف، 197).

أول من أدخل هذا المصطلح ضمن الاصطلاحات التصوف الحكيم الترميذي (الكحلوي، 2009: 247) معتبرا الولاية من مراتب القرب الإلهي.

- المعنى الثاني: يتضمن المعنى المعرفي، الذي اعتبره ابن عربي وهو من متصوفة الغرب الإسلامي المتأخرين. المعرفة بالله أو العلم الباطن، (العدلوني: 207) ومن ثمة يكون عنده الولي اسم مرادف " للعارف بالله".

- المعنى الثالث: الذي يأتي في إطار الدلالة على ممارسة الفعل أو الوظيفة، ويتصل ذلك بالإمدادات الروحية والمادية، من خلال البركة، وهي السلطة التي يستند عليها الولي بوصفها دليل على ولايته، "مما يجعلها تحظى بقيمة رمزية وبفعالية على مستوى الممارسات الاجتماعية" (بن سالم: 26).

وبعد تأسيس الشيخ أحمد بن يوسف للزاوية الراشدية بموطنه بني راشد، وتحديدًا بدوار رأس الماء، بدأ الإقبال على هذه الزاوية، التي كانت في مراحلها الأولى تقوم بمختلف الأدوار التعليمية والتثقيفية، إضافة إلى المساهمات الاجتماعية. لم تكن هذه الأدوار تخرج عن دائرة ما كان يقوم به معظم شيوخ الطرق والزوايا، فانتشرت طريقته وكثر أتباعه ومريدوه. كما ساهمت أفكاره الصوفية في الظهور والاشتهار، فتمكنت الزاوية الراشدية من خلال الممارسة الاجتماعية لمؤسسها من فرض هيبتها على السلطة، وحتى على الأطراف الاجتماعية الأخرى.

عملت السلطة القائمة على كسب الشيخ، الذي أصبحت سلطته تمتد إلى قواد وقضاة بني راشد. وستعمل كل من الموارد الاقتصادية والبشرية والرمزية للزاوية من تعاضم هبة مؤسسها، الذي سيدخل في منافسة قوية مع أمراء بنو زيان، وستتحول علاقة التودد والتقرب التي ربطت السلطة بالزاوية الراشدية إلى علاقة تنافس وتنافر. كان السبب المباشر في ذلك هو الأوضاع السياسية التي هزت المغرب الأوسط، وهي أحداث شكلت نقطة تحول المسار السياسي لدولة المغرب الأوسط حاليا والجزائر فيما بعد وإلى غاية الاحتلال الفرنسي سنة 1830م.

اقتربت السيرة الذاتية للملياني بمواقفه السياسية الجريئة التي تعكس مدى تأثر الشيخ بالأفكار الصوفية للطريقة الشاذلية، جانبها النظري والعملي خاصة المتمثلة منها في الجانب السياسي. لأن أبا الحسن الشاذلي يعتبر "الأصل المؤسس لخصوصية الفكر الصوفي بالمغرب." (الصغير، 2000: 177) والملاحظ تاريخيا أن الوضع السياسي الذي عاشه الشاذلي، يشبه إلى حد ما عاصره الملياني. وليس من الغريب أن يكون عامل التأثير هذا قد ساهم في رفع مكانته بين أهله في بني راشد، خصوصا وأنه تزامن مع الضعف والتدهور الذي بدأ يدب في السلطة الزيانية.

كان أحمد بن يوسف في ظل هذا الوضع السياسي المتردي، يجتمع بأتباعه في زاويته ويتبادلون الآراء حول ما كان يجري في البلاد، (الصادق، 1964: 102) مستاءين عن ردود أفعال الدولة

الزيرية، المسألة للنصارى، والمالية للأسبان. فكانت أول مواجهة بين الملياني والحكومة الزيرية أثناء إمارة أبو عبد الله محمد الخامس الثابتى (1504-1516)، بسبب تفويضه لليهود للتصرف في الخراج البري والبحري. (المدني، 1974: 116)

فأثار استياء شيخ الطريقة الراشدية من السلطة الزيرية استياء الأتباع والأهالي، فتعاضم شأن أحمد بن يوسف، في وقت كانت شخصية الأمير الزيري توصف بالضعف، فأرسل قائد بني راشد أحمد بن غانم إلى الأمير الزيري رسالة بما كان يدور في موطنه، وما كان على الأمير إلا أن أمر بالقبض على أحمد بن يوسف، لكن القائد أشار على الملياني بالاختفاء. (المزاري، 1990: 74) وهو ما حدث بالفعل حيث هاجر الملياني موطنه وتمكن من الهروب من السلطة الزيرية بالجوء إلى قبيلة بني غدو وهي قبيلة قرب قلعة هواره شرق مدينة معسكر قاتلا مقلته المشهورة: شوشونا شوشهم الله من البحر والبر. وقد أرجعت كتب المناقب والسير سبب احتلال الأسبان لـ وهران سنة 1508 م وبجاية سنة 1510 م لهذه المقولة، (المزاري، 1990: 74) دون النظر أن هذه المقولة كانت نتيجة لنقد الشيخ الملياني لفساد وضعف الدولة الزيرية المبشر بقرب انهيارها.

لقد بدأ التحالف بين عروج وشيخ الطريقة الراشدية فعليا أثناء تحرك جيش عروج نحو تلمسان بعد ما استنجد التلمسانيون به فر بناحية قلعة هواره متجنبين مدينة وهران التي كانت تحت الاحتلال الأسباني بمساعدة الشيخ أحمد بن يوسف الذي يكون قد رافق عروج إلى القلعة وتلمسان وبعد استيلاءه عليها نصب على عرشها الأمير الموالي للشيخ، لكن حليف الأسبان الأمير أبي حمو الثالث (1516م-1527م) جهز جيشا من الأعراب بمساعدة فرقة من الجيش الأسباني وهاجم قلعة بني راشد التي دافع عنها أتباع الطريقة الراشدية وفرقة من جيش عروج يقودها شقيقه إسحاق، وبعد انتصاره على القلعة توجه إلى تلمسان التي "احتلها بعد معركة عنيفة استشهد فيها عروج سنة 924هـ/1518م".

وبتولي أبو حمو الثالث إمارة تلمسان لم يتمكن أحمد بن يوسف من الإفلات مرة أخرى من قبضة هذا الأمير، فسجنه بأمر منه في جواره بالقصر. (الصادق، 1964: 103) وهناك من أرجع سبب سجنه إلى الحكم المؤجل الذي أصدره الأمير عبد الله، (Boudin, 1925: 176) وقد أرجع البعض الآخر إطلاق سراحه بعد أن نجح في إثبات كراماته التي كان الأمير أبي حمو قد امتحنه فيها، وبخبره تبدأ المرحلة الثانية من المعارضة ضد أمراء بني زيان.

إذا رجعنا إلى الوضع السياسي آنذاك الذي تميز بشكل عام بضعف دولة بني زيان وتناحر أمراءها على الملك من جهة، ومن جهة أخرى التنافس العثماني الأسباني على المغرب الأوسط كمنطقة إستراتيجية لهما في أفريقيا والبحر المتوسط، فإننا نجد تفسيراً عقلانياً لأسباب إطلاق صراح أحمد بن يوسف الملياني من سجن مملكة تلمسان التي كانت تبحث على إرضاء وتقريب العامة.

إن وفاة الأمير أبي حمو وتولي أخاه الأمير عبد الله العرش كان السبب المباشر لبقاء أحمد بن يوسف على مسرح الأحداث السياسية، إذ حاول الأمير الجديد التحالف مع خير الدين فأبقى على

حليفه، لكن الأمير مسعود أخ الأمير عبد الله سبق للتحالف مع خير الدين فوضعه على عرش تلمسان بعد احتلالها سنة 1519م، ثم بايع هذا الأمير السلطان سليمان العثماني. (المدني، 1974: 100)

لقد استقرت العلاقة بين شيخ الطريقة الراشدية وخير الدين إلى غاية وفاته سنة 1524م، وتواصلت بين شيوخ الطريقة الراشدية من أبناء وأحفاد الشيخ أحمد بن يوسف الملياني في العهد التركي بالجزائر إلى غاية الاحتلال الفرنسي سنة 1830م. (نجمي، 1997: 102) ويبين ذلك إلى أي مدى كان للتصوف الطريقي عامة والطريقة الراشدية خاصة دورا في الحراك السياسي في الغرب الأوسط من خلال مساهمتها الفعالة في سقوط دولة بني زيان وقيام الحكم التركي بالجزائر. كما ساهم هذا الحكم بدوره في تدعيم الطرق الصوفية التي هيمنة على البنية الثقافية للمجتمع. ويتبين ذلك من خلال الأحداث السياسية التي عرفتها الجزائر أثناء الحكم التركي وبداية الاحتلال الفرنسي، حيث أن انتظام الانتفاضات والمقاومات كان يحدث دوما في الإطار الطريقي.

المصادر والمراجع:

- جغلول، عبد القادر. (1988). (ط2). مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم، بيروت: دار الحداثة.
- الجيلاني، عبد الرحمن. (1994). (ط7). تاريخ الجزائر العام (4 أجزاء) ج2. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- حاجيات، الحميد. وآخرون. (1989). الجزائر في التاريخ، العهد الإسلامي. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- سعد الله، أبو القاسم. (1985). تاريخ الجزائر الثقافي. ج1. (ط1)، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- شودكفيتش، علي. (2004). الولاية والنبوة. (ط1). ترجمة د. أحمد الطيب. بيروت: دار الشروق.
- الصادق، الحاج. (1964). مليانة ووليا سيدي أحمد بن يوسف، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الصباغ، عن عبد الله نجمي. (2000) التصوف والبدعة بالمغرب - طائفة العكاكزة - ق16/17م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء: مطبعة النجاح.
- الصغير، عبد المجيد. (2000). (ط1). تجليات الفكر المغربي. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس.
- العدلوني الإدريسي، محمد. معجم مصطلحات التصوف الفلسفي. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- عيسى، لطفي. (2005). مغرب المتصوفة، تونس: مركز النشر الجامعي.
- غلاب، عبد الكريم. (2005). قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ج2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

- الكحلاوي، محمد. (2009). (ط1). الفكر الصوفي في افريقية والغرب الإسلامي. بيروت: دار الطليعة.
- المدني، أحمد توفيق. حرب 300 سنة بين الجزائر واسبانيا.
- المزاري، بن عودة. (1990). طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وأسبانيا وفرنسا، تحقيق: يحيى بوعزيز، ج 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- نجي، عبد الله. (1997). بين زروق ولوث، ضمن كتاب الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- الورثياني، الحسين بن محمد. (1974). نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار- المشهورة بالرحلة الورثانية- (ط2). بيروت: دار الكتاب العربي.
- وولف، جون. ب. (2009). الجزائر وأوروبا، تز: أبو القاسم سعد الله. الجزائر: عالم المعرفة.
- BOUDIN. (1925). «Note et questions sur sidi Ahmed ben Youssef.» in *Revue Africaine*, Alger: Publiée par la Société Historique Algérienne, Vol. 66.